

كسهره وقد فنيت حظوظه، وبقيت حقوقه ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق، وكل ذلك منقول من أحوال النبي ﷺ.

وكان إذا جلس فقير في خلوة، يدخل عليه في كل يوم يتفقد أحواله، ويقول له يرد عليك الليلة كذا ويكشف لك عن كذا وتنال حال كذا وسيأتيك شخص في صورة كذا، ويقول لك كذا فاحذره فإنه شيطان، فيقع للفقير جميع ما أخبره به الشيخ. سكن بغداد إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين وخمسمائة ودفن بمدرسته على شاطئ دجلة وقبره بها ظاهر يزداد رضى الله عنه.

٢٦٢- ومنهم الشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضى الله تعالى عنه :

منسوب إلى بنى رفاعه قبيلة من العرب، وسكن أم عبيدة بأرض البطائح إلى أن مات بها رحمه الله تعالى . وكانت انتهت إليه الرياسة فى علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلهم، وبه عرف الأمر بتربية المريدين بالبطائح، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة وتلمذ له خلائق لا يحصون ، ورثاه المشايخ والعلماء وهو أحد من قهر أحواله وملك أسرارهم وكان له كلام عال على لسان أهل الحقائق ، وهو الذى سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال هو الذى لو نصب له سنان على أعلى شاهق جبل فى الأرض وهبت الرياح الثمان ما غيرته.

وكان رضي الله عنه يقول: الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكسا بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعا إلى عالم العقل فيتصل به اتصالا معنويا له أثر فى استفاضة نور العقل على ساحة القلب فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفى عن الأبصار موضعه ودق عن الأفهام تصوره واستتر عن الأغيار مرآه، وكان رضي الله عنه يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية والمراتب السننية وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله والراضين عن الله، والمتوكلين على الله فمن لم يحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شئ مما بعده.

وكان رضي الله عنه يقول: الفقراء أشرف الناس، لأن الفقير لباس المرسلين وجلباب الصالحين وتاج المتقين وغنيممة العارفين ومنية الريدسين ورضا رب العالمين وكرامة

لأهل ولايته، وكان يقول: الأنس بالله لا يكون إلا لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك أنسه الله تعالى به، راده بحق حقائق الأنس فأخذه عن وجد طعم الخوف لما سواه، وكان رضي عنه يقول: المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين وحقائق حق اليقين، وكان رضي عنه يقول التوحيد وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعطيل والتشبيه .

وكان يقول لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات ولسان التعبّد يدعو إلى دوام الاجتهاد ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان والهيمان ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو ولسان التوحيد يدعو إلى الإثبات والحضور من أعرض عن الأغراض أدبا فهو الحكيم المتأدب وكان رضي عنه يقول لو تكلم الرجل في الذات والصفات كان سكوته أفضل، ومن خطأ من قاف إلى قاف كان جلوسه أفضل.

وكان رضي عنه يقول: لما مررت وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرنوتى أوصانى وقال لى يا أحمد أحفظ ما أقول لك فقلت: نعم فقال رضي عنه: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لم يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان، فخرجت من عنده وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت له أوصنى فقال: ما أقبح الجهل بالأولياء والعلة بالأطباء والجفاء بالأحياء، ثم خرجت وجعلت أرددها سنة فانتفعت بموعظته رضي عنه وكان رضي عنه يقول أكره للفقراء دخول الحمام، وأحب لجميع أصحابى الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم. وكان يقول الشفقة على الإخوان مما يقرب إلى الله تعالى.

وكان رضي عنه يقول: إذا جنتم ولم تجدوا عندي ما يأكله ذو كبد فاسألونى الدعاء أدع لكم فإنى حينئذ لى أسود برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الشيخ يعقوب رضي عنه خادمه: نظر سيدى أحمد رضي عنه إلى النخلة فقال يا يعقوب أنظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها، ولو حملت مهما حملت، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض جعل ثقل حملها على غيرها ولو حملت مهما حملت، لا تحس به وكان رضي عنه يقول الصدقة أفضل من العبادات البدنية والنوافل، وكان رضي عنه يقول: أخوك الذى يحل لك أكل ماله بغير إذنه هو الذى تسكن نفسك إليه ويستريح قلبك فيه.

وكان إذا رأى على فقير حبة صوف يقول له: يا ولدى انظر بزي من تزينت وإلى من قد انتسبت قد لبست لبسة الأنبياء، وتحليت بحلية الأتقياء هذا زى العارفين فاسلك فيه مسالك المقربين وإلا فانزعه، وكان رضي الله عنه يقول: إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين، وإذا صلح القلب أخبرك بما وراءك وأمامك ونبهك على أمور لم تكن تعلمها بشيء دونه، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب معها الرشد وينتفى معها السعد.

وكان رضي الله عنه يقول: من شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فيودع كل نفس، أعز ما يصلح له فلا يضيع له نفس وكان رضي الله عنه يقول السفر للفقير يمزق دينه ويشتت شمله.

وكان يقول لمن شاوره في التزويج: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من تزوج لله كفى ووقى" وكان رضي الله عنه يقول من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالى، وكان يقول الأمر أعظم مما تظنون وأصعب مما تتوهمون، وكان يقول كل أخ لا ينفع فى الدنيا لا ينفع فى الآخرة، وكان رضي الله عنه يقول إذا تعلم أحدكم شيئا من الخير فليعلمه الناس يثمر له الخير وكان يقول: طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء لا تسأل ولا ترد ولا تدخر.

وكان يقول من علامة إقبال المرید أن لا يتعب شيخه فى تربيته بل يكون سميعا مطيعا للإشارة. وأن يفتخر شيخه به بين الفقراء لا أنه يفتخر هو بشيخه، وكان يقول الفقير إن غضب مسه تعب، وإن سلم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل وكان يقول ما من ليلة إلا وينزل فيها نثار من السماء إلى الأرض يفرق على المستيقظين، وكان يقول والله ما لى خيرة إلا فى الوحدة فى ليتنى لم أعرف أحدا ولم يعرفنى. أحد وكان رضي الله عنه يقول: ما نظر أحد إلى الخلائق ووقف مع نظرهم فى العبادات إلا سقط من عين الله عز وجل.

وكان رضي الله عنه يقول: من شرط الفقير أن لا يكون له نظر فى عيوب الناس، وكان يقول: كم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وكم أنهبت من دين وكان رضي الله عنه يقول من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له فإن مد يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله ومن تقدم عليكم فقدموه وكونوا آخر شعرة فى الذنب فإن الضربة أول ما تقع فى الرأس

وكان ﷺ يقول: وعدنى ربي أن لا أعبى عليه وعلى شيء من لحم الدنيا قال يعقوب الخدم ففنى لحمه بأجمعه قبل خروجه من الدنيا.

وكان يقول إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى وصارت همته خارقة للسبع السموات، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا لا يعجزه شيء، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه قال ويدل لما لقناه ما ورد فى بعض الكتب الإلهية يقول الله ﷻ: يا بنى آدم أطيعونى أطعكم واختارونى اختركم وأرضوا عنى أرض عنكم وأحبونى أحبكم وراقبونى أراقبكم وأجعلكم تقولون للشئء كمن فيكون، يا بنى آدم من حصلت له حصل له كل شئء، ومن فته فاته كل شئء.

قلت: وقوله وصار صفة من صفات الحق تعالى، لعله يريد التخلق والاتصاف بصفاته تعالى من الحلم والصفح والكرم لأنه لا يصح لأحد أن يكون عين صفات الحق فهو كقوله "فى يرى وبى يسمع وبى ينطق" وما أشبه ذلك.

وكان ﷺ إذا صعد الكرسى لا يقوم قائما وإنما يتحدث قاعدا وكان يسمع حديثه البعيد مثل القريب حتى أن أهل القرى التى حول أم عبيدة كانوا يجلسون على سطوحهم يسمعون صوته ويعرفون جميع ما يتحدث به حتى كان الأطراش والأصم إذا حضروا يفتح الله أسماعهم لكلامه، وكانت أشباح الطريق يحضرونه ويسمعون كلامه، وكان أحدهم يبسط حجره فإذا فرغ سيدى أحمد ﷺ ضموا حجورهم إلى صدورهم . وقصوا الحديث إذا رجعوا على أصحابهم على جليته.

قلت: وهذا يشبه ما وقع لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام من النداء لما بنى البيت فإنه قال يا رب كيف أسمع جميع الخلائق فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم عليك النداء وعلينا البلاغ . فنادى إبراهيم بالحج فأجابوه فى الأصلاب من سائر أقطار الأرض البعيدة مثل القريبة، فالإبلاغ من الله تعالى لا من إبراهيم فإن البشرية لا تقدر على ذلك.

وكان ﷺ يقول: إذا أراد الله ﷻ أن يرقى العبد إلى مقامات الرجال يكلفه أمر نفسه أولا فإذا أدب نفسه واستقامت معه، كلفه بأهله فإن أحسن إليهم وأحسن عشيرتهم كلفه بجيرانه وأهل محلته فإن أحسن إليهم ودارهم كلفه ببلده فإن هو

أحسن إليهم وداراهم كلفه جهة من البلاد، فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم وأصلح سريرته مع الله تعالى كلفه ما بين السماء والأرض، فإن بينهن خلقا لا يعلمهم إلا الله تعالى ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث ثم ترتفع صفته إلى أن تصير صفة من صفات الحق تعالى ، وأطلعه على غيبه حتى لا تثبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بنظره. وهناك يتكلم عن الله تعالى بكلام لا يسعه عقول الخلائق لأنه بحر عميق غرق في ساحله خلق كثير وذهب به إيمان جماعة من العلماء والصلحاء فضلا عن غيرهم^(١).

وكان ﷺ يقول: لولده صالح إن لم تعمل بعلمي فلست لك أبا ولا أنت لى ولدا وكان ﷺ يقول: اللهم اجعلنا ممن فرشوا على بابك لفرط ذلهم نواعم الخدود ونكسوا رؤوسهم من الخجل وجباههم للسجود ببركة صاحب اللواء المحمود آمين وكان إذا حل على جسمه بعوضة لا يطيرها ولا يمكن أحد يطيرها ويقول دعوها تشرب من هذا الدم الذى قسمه الحق تعالى لها، وكان إذا جلس على ثوبه جرادة وهو مار فى الشمس وجلست على محل الظل يمكث لها حتى تطير ويقول إنها استظلت بنا.

وكان إذا نام على كفه هرة وجاء وقت الصلاة يقطع كفه من تحتها ولا يوقظها فإذا جاء من الصلاة أخذ كفه وخاطه ببعضه، ووجد ﷺ مره كلبا أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد فخرج معه إلى البرية وضرب عليه مظلة وصار يطلية بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحت الجرب منه بخرقفة فلما برئ حمل له ماء مسخنا وغسله وكان قد كلفه الله تعالى بالنظر فى أمر الدواب والحيوانات^(٢)، وكان ﷺ إذا رأى فقيرا يقتل قملة أو برغوثا يقول له لا^(٣)، وأخذك الله شفيت غيظك بقتل قملة.

وسمع مرة رجلا يقول إن الله تعالى له خمسة آلاف اسم فقال قل إن لله تعالى أسماء بعدد ما خلق من الرمال والأوراق وغيرها، وكان ﷺ يمشى إلى المجذومين والزمنى يغسل ثيابهم ويفلى رؤوسهم ولحاهم ويحمل إليهم الطعام ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء، وكان ﷺ يقول الزيارة لمثل هؤلاء واجبة لا مستحبة.

(١) هذه أمور ليس عليها أى دليل من الشرع ولا يعلم الغيب إلا الله .

(٢) ليس هناك دليل شرعى على ذلك .

(٣) الإسلام يدعو إلى النظافة . وهذه الأقوال قد تكون دخيله عليهم .

ومر يوما على صبيان يلعبون فهربوا منه هيبة له فتبعهم وصار يقول أجعلوني في حل فقد روعتكم ارجعوا إلى ما كنتم عليه، ومر يوما على صبيان يتخاصمون فخلص بينهم وقال لواحد متهم ابن من أنت، فقال له وأيش فضولك، فصار يردد لها ويقول أدبتنى يا ولدى جزاك الله خيرا، وكان يبتدئ من لقيه بالسلام حتى الأنعام والكلاب وكان إذا رأى خنزيرا يقول له أعم صباحا فليل له فى ذلك فقال أعود نفسى الجميل.

وكان إذا سمع بمريض فى قرية ولو على بعد يمضى إليه يعودده ويرجع بعد يوم أو يومين، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا جاءوا يأخذ بأيديهم ويقودهم، وكان إذا رأى شيئا كبيرا يذهب إلى أهل حارته ويوصيهم عليه ويقول قال النبى ﷺ: "من أكرم ذا شيبة يعنى مسلما سخر الله له من يكرمه عند شيبته" وكان إذا قدم من السفر وقرب من أم عبيدة يشد وسطه ويخرج حبلا مدخرا معه ويجمع حطبا ثم يحمله على رأسه فإذا فعل ذلك فعل الفقراء كلهم فإذا دخل البلد فرق الحطب على الأرامل والمساكين والزمنى والمرضى والعميان والمشايخ.

وكان ﷺ لا يجازى قط السيئة بالسيئة، وكان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد شيئا فشيئا حتى يرد إلى جسمه المعتاد^(١) ويقول لولا لطف الله تعالى بى ما رجعت إليكم، ولقيه مرة جماعة من الفقراء فسبوه وقالوا له يا أعور يا دجال يا من يستحل المحرمات يا من يبدل القرآن يا ملحد يا كلب فكشف سيدى أحمد ﷺ رأسه وقبل الأرض وقال يا أسيادى اجعلوا عبيدكم فى حل وصار يقبل أيديهم وأرجلهم ويقول ارضوا على وحلمكم يسعنى فلما أعجزهم قالوا ما رأينا قط فقيرا مثلك تحمل منا هذا كله ولا تتغير، فقال هذا ببركتكم ونفحاتكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: ما كان إلا خيرا أرحناهم من كلام كان مكتوما عندهم وكنا نحن أحق بهم من غيرنا فربما لو وقع منهم ذلك لغيرنا ما كان يحملهم.

وأرسل إليه الشيخ إبراهيم البستى كتابا يحط عليه فيه فقال سيدى أحمد ﷺ للرسول اقرأه لى فقراه فإذا فيه أى أعور أى دجال أى مبتدع يا من جمع الرجال والنساء حتى ذكر الكلب بن الكلب وذكر أشياء تغليظ فلما فرغ الرسول من قراءة

(١) ليس هناك دليل من الشرع على ذلك، وقد تكون مما دسه الغرضون.

الكتاب أخذه سيدى أحمد رضي الله عنه وقرأه وقال صدق فيما قال جزاه الله عنى خيرا ثم
أنشد:

فلست أبالي من رمانى بريبة إذا كنت عند الله غير مريب

ثم قال للرسول أكتب إليه الجواب من هذا اللاشئ حميد إلى سيدى الشيخ
إبراهيم البستى رضي الله عنه ، أما قولك الذى ذكرته فإن الله تعالى خلقنى كما يشاء وأسكن
فى ما يشاء ، وإنى أريد من صدقاتك أن تدعولى ولا تخلينى من حلك وحلمك فلما
وصل الكتاب إلى البستى هام على وجهه فما عرفوا إلى أين ذهب ، وكان رضى الله عنه
إذا علم أن الفقراء يريدون أن يضربوا أحدا من إخوانهم لزلة وقعت منه يستعير منه
ثيابه ويلبسها وينام فى موضعه فيضربونه فإذا فرغوا من ضربه واشتفوا منه يكشف
لهم عن وجهه فيغشى عليهم ، فيقول لهم ما كان إلا الخير كسبتمونا الأجر والثواب
فيقول بعض الفقراء لبعضهم : تعلموا هذه الأخلاق .

وقال رضي الله عنه لأصحابه يوما من رأى فى حميد منك عيبا فليعلمه به ، فقام شخص
فقال يا سيدى فيك عيب عظيم ، فقال : وما هو يا أخى فقال : كون مثلنا من
أصحابك فبكى الفقراء وعلا نحيبهم وبكى سيدى أحمد معهم وقال أنا خادمكم أنا
دونكم ، وكان لسيدى أحمد شخص ينظر عليه وينقصه فى نواحى أم عبيدة فكان
كلما لقى فقيرا من جماعة سيدى أحمد رضي الله عنه يقول خذ هذا الكتاب إلى شيخك
فيفتحه سيدى أحمد فيجد فيه أى ملحد أى باطل أى زنديق وأمثال ذلك من الكلام
القبيح ثم يقول سيدى أحمد رضي الله عنه صدق من أعطاك هذا الكتاب ثم يعطى الرسول
درهيمات ويقول جزاك الله عنى خيرا كنت سببا لحصول الثواب . فلما طال الأمر على
ذلك الرجل وعجز عن سيدى أحمد مضى إليه فلما قرب من أم عبيدة كشف رأسه
وأخذ منزره وجعله فى وسطه وأمسكه إنسان وصار يقوده حتى دخل على سيدى
أحمد فقال ما أحوجك يا أخى إلى هذا فقال فعلى . فقال له سيدى أحمد رضي الله عنه ما كان
إلا الخير يا أخى ثم طلب منه أخذ العهد عليه فأخذه عليه وصار من جملة أصحابه إلى
أن مات .

وكان رضي الله عنه يقول إذا قمت إلى الصلاة كان سيف القهر يجذب فى وجهى . وكان
رضي الله عنه يقول لا يحصل للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شئ من الخبث لا لعدو ولا
لصديق ولا لأحد من خلق الله عز وجل . وهناك تستأنس الوحوش بك فى غياضها والطير

فى أوكارها ولا تنفر منك، ويتضح لك سر الحاء والميم، وقال له شخص من تلامذته يا سيدى أنت القطب فقال نزه شيخك عن القطبية فقال له وأنت الغوث فقال نزه شيخك عن الغوثية.

قلت: وفى هذا دليل على أنه تعدى القامات والأطوار لأن القطبية والغوثية مقام معلوم ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام وإن كان له فى كل مقام مقام والله أعلم.

قال يعقوب الخادم رضي الله عنه ولا مرضى سيدى أحمد رضي الله عنه مرض الموت قلت له تجلى العروس فى هذه المرة . قال نعم فقلت له: لماذا فقال جرت أمور اشتريناها بالأرواح وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشربته بما بقى من عمري فباعنى وكان يمرغ وجهه وشيبته على التراب ويبكى ويقول العفو العفو، ويقول: اللهم اجعلنى سقف البلاء على هؤلاء الخلق.

وكان مرض الشيخ رضي الله عنه بالبطن فكان يخرج منه فى كل يوم ما شاء الله فبقى المرض بالشيخ شهرا فقليل له من أين لك هذا كله ولك عشرون يوما لا تأكل ولا تشرب، فقال: يا أخى هذا اللحم يندفع ويخرج ولكن قد ذهب اللحم وما بقى إلا المخ اليوم يخرج وغدا تعبر على الله تعالى فخرج منه شىء أبيض مرتين أو ثلاثا وانقطع ثم توفى يوم الخميس وقت الظهر ثانى عشر جمادى الأولى سنة سبعين وخمسائة وكان يوما مشهودا .

وكان آخر كلمة قالها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ودفن فى قبر الشيخ يحيى البخارى، وكان شافعى المذهب قرأ كتاب التنبيه للشيخ أبى اسحاق الشيرازى وما تصدر قط فى مجلس ولا جلس على سجادة تواضعا وكان لا يتكلم إلا يسيرا ويقول أمرت بالسكوت رضي الله عنه.

٢٦٣- ومنهم الشيخ على بن الهيتى رضى الله تعالى عنه :

هو من أكابر مشايخ العراق وأعيان العارفين وهو أحد من ينسب الى القطبية العظمى وكان عنده الخرقتان اللتان البسهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأبى بكر بن هوار فى النوم واستيقظ فوجدتهما عليه وهما شوب وطاقيه وكان أعطاهما ابن هوار للشيبكى . وأعطاهما الشيبكى اتاج العارفين أبى الوفاء، وأعطاهما تاج العارفين للشيخ